كتب

إلى منتصف العام الماضي، تأخّر وصول أهم وأضخم مؤلّفات المفكّر الألماني إلى العربية. صدر العمل عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» في مجلّدين بترجمة فتحي المسكيني ومن خلاله يمكن أن نعيد موقعة يورغن هابرماس على خارطة الفكر العالمي

مغامرة إعادة تأسيس المعرفة الاجتماعية

في متاهة ورشة هابرماس

شوقي بن حسن

راج اسم المفكّر الألماني يورغن هابرماس (1929) في الآونة الأخيرة، عربياً، بسبب رفضه تسلّم «جائزة زايد» كشخصية ثقافية لعام 2021. كان حضوراً مكثّفاً لعَلَم من أعلام الفكر في زمننا ضمن النقاشات العربية. لكن، هل يحقّ لنا اعتماد مفردة «حضور» إذا كانت ثقافتنا تتلقى مفكّراً أو كاتباً عبر هكذا ضجّة من دون أن تحضر أفكاره بشكل واسع، على الأقل في فضاء النقاش النخبوي؟

تفرض هذه الملاحظة نفسها حين نذكر أن كتاب هابرماس الأهم (بإقرار منه) والأضخم، «نظرية الفعل التواصلي»، قد مرّ صدور نسخته العربية مؤخراً دون كثير اهتمام. صدر العمل منتصف 2020 عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» في مجلّدين؛ الأول بعنوان «عقلانية الفعل والعقلانية الاجتماعية» والثاني بعنوان «في نقد العقل الوظيفي»، وقد نقله إلى اللسان العربي أستاذ الفلسفة في الجامعة التونسية فتحي المسكيني. يشير تفاوت الاهتمام بهابرماس في المناسبتين إلى إحدى إشكاليات الثقافة العربية راهناً، حيث تنزل الأسماء الفكرية من سماء النظريات إلى الأرض العربية ليس من خلال أفكارها وكتاباتها بل ضمن أحداث ومواقف متفرّقة تصنع حالة تلقٍّ مزيّفة. ولعلّ قارئ «نظرية الفعل التواصلي»، بالذات، في نسخته العربية، سيتفطّن سريعاً إلى ما بقي خارج الثقافة العربية لأكثر من أربعين عاماً، حيث صدر هذا الكتاب في 1981. فالعمل عبارة عن موسوعة للمعرفة الاجتماعية لا يكتفي فيها هابرماس بجمع المادّة النظرية بل يفحصها ويقدّم مقولات تأليفية حولها، فكأنه كان يهدف إلى بناء فضاء عمومي متخيّل للنظريات الاجتماعية يتناقش فيه مع ماكس فيبر وإيميل دوركهايم وجورج هربرت ميد وتالكوت بارسونز وكارل ماركس وأعضاء مدرسة فرانكفورت وهابرماس نفسه.

من زاوية نظر أخرى، يمكن اعتبار الكتاب مُرَكّباً طريفاً من الثيمات والحقول المضمونية، فحين نكون داخل «الورشة الفلسفية» التي يشتغل فيها هابرماس، والعبارة له، فنحن نعبر فضاءات معارف متنوّعة يلمسها الكتاب من خلال إشكالياته الخاصّة ببناء تصوّر للحياة الاجتماعية قوامها علاقات التعاقد التواصلي بين الأفراد، فنتقاطع في الأثناء مع تاريخ الفكر وقضايا العلم والدين والقانون والحداثة، ونشعر أن وضع هذه العناصر في إناء واحد يخلق محاكاة للتفاعلات الفوقية التي تحكم الحركة الاجتماعية.

مدخلٌ آخر ممكنٌ لعمل هابرماس الضخم هذا (قرابة 1300 صفحة في النسخة العربية)، هو الهيكل المفاهيمي الذي يقترحه المفكّر الألماني في سبيل بلوغ الأهداف التي يطرحها على نفسه. يساعدنا ثبت المصطلحات نهاية الكتاب على تمثّل هذا الهيكل المفاهيمي، ولا بدّ هنا من أن نشير إلى ما أقرّ به المترجم من كون «لغة هابرماس الفلسفية والسوسيولوجية ضمن كتاب ‹نظرية الفعل التوصلي› تحتوي على نوع لافت من التجديد في بنية العبارة المفكّرة، إذ ما عاد الأمر يقتصر على خلق مفاهيم مفردة في ألفاظ معزولة تختلط باللغة العادية بل بات يقوم على بناء مدوّنة تفكير أو صياغات اصطلاحية خاصّة ربما تكون مفرداتها معروفة لكنّ تركيبها في إطار شبكة من المقاصد النظرية أو النقدية هو نمطٌ بحثيّ مستقلّ بذاته».

هذا التجديد الاصطلاحي، وعلى الرغم من حرص هابرماس على عدم المبالغة فيه، لعلّه سبب آخر من أسباب انقطاع الثقافة العربية عن معظم المنتج الفكري الجديد، ليس لصاحب «المعرفة والمصلحة» فحسب، بل على نطاق أوسع عالمياً. فأيّ أفق بحثي يمكنه تلقّي أفكار عمل إشكالي مثل «نظرية الفعل الاجتماعي» قبل تأصيل معارف مثل علم الاجتماع واللسانيات، وقبل استقبال مفاهيم مثل عالم الحياة وألسنة المقدّس والاعتراف البيذاتي بأريحية؟ وقبل ذلك، كيف نهيّئ لاستقبال أعمال فكرية كبرى مثل «نظرية الفعل التواصلي» من دون إضاءات موسّعة لعدّة نقاط مثل الحاجة إلى تأليفه وكيف كان استقباله الأوّل في لغته الأمّ، ثم في لغات مجاورة؟

> يجعل من التواصل حجر الأساس لكلّ تنظير حول المجتمع

> تأخّرت ترجمة الكتاب إلى العربية أربعين عاماً بعد صدوره

بالنظر في هذه السياقات التي يجدر بنا الانتباه إليها، سيعيد كتاب «نظرية الفعل التواصلي» ترتيب بعض الأوراق، ومنها كيف نُموقع هابرماس في خارطة الفكر. ففي متداول نقاشات الثقافة العربية، لا يزال المفكّر الألماني محسوباً على «جماعة فرانكفورت»، والمعلومة صائبة إذا ما رجعنا إلى سيرته المهنية لنجد ذلك التقاطع مع «معهد الدراسات الاجتماعية». ولكنّ هابرماس كان منذ السبعينيات ينزع نحو مغادرة «فرانكفورت»، وإنّ كتاب «نظرية الفعل التواصلي» يمثّل نقطة التباين النهائي التي تجعل القارئ يكفّ عن ربط هابرماس بشكل عضوي بالمدرسة. يقيم المفكّر الألماني كلّ بحث في المجتمع على فحص الممارسات التواصلية، بل ويجعل منها منتجةً للاجتماعيّ، وهو ضرب من الاجتهاد من أجل مفارقة مسلّمات «النظرية النقدية» كما تصوّرها أدورنو وهوركهايمر. يشتغل هابرماس هنا ضمن براديغم معرفي لم تتحرّك في أفقه «مدرسة فرانكفورت»، فيعتمد براديغم اللغة مقابل براديغم الوعي، حيث يرى أنّ ما لا يمكن إسقاطه من كلّ تمثّل للمجتمع هو البعد التواصلي، وهذا الأخير يقوم دائماً على عقلانية تنتجها مصالحُ بشكل عفويّ ودائم، بل إنّ مفهوم العقلانية ذاته يقيمه على التواصل، فيعرّفها بوصفها «استعداداً خاصّاً بذوات قادرة على الكلام والفعل».

وفي المحصّلة، يوجد دائماً عنصر تواصليّ لا يمكن تقويضه وينبغي للمعرفة أن تدافع عنه لبناء بقية المنظومة الاجتماعية نظرياً، وهو عنصرٌ مفلتٌ من المعرفة الاجتماعية التي تمأسست قبل قرابة قرن من تأليف كتاب «نظرية الفعل التواصلي». يقول هابرماس في هذا الصدد: «نحتاج إلى نظرية في الفعل التواصلي إذ ما أردنا أن نستأنف على نحو مناسب إشكاليّة العقلنة الاجتماعية، تلك التي تمّ استبعادها بشكل واسع من دائرة النقاش السوسيولوجي المختصّ منذ ماكس فيبر».

من أجل هذا الهدف، يربط هابرماس النظريات السوسيولوجية بالمنعطف اللغوي، وهو أمرٌ شاقّ يمكن تشبيهه بربط مسار كوكبين، نظراً لتضخّم مدوّنة العلوم الاجتماعية من جهة، وضرورة الاعتماد على مقولات معارف متباينة من الفلسفة إلى اللسانيات من أخرى، وإن كان من المعروف أن هابرماس محبٌّ للاشتغال النظري العابر للتخصّصات حتى قيل عنه بأنه «عامل على الحدود»، بعبارة لأوتفريد هوفه يُقرّها المترجم في مقدمة النسخة العربية.

ينتج هذا التنوّع والتشعّب صعوبة في الإمساك بمقولات الكتاب، وقد كان هابرماس يحسب حساباً لمثل هذه الإشكالية التي تعترض المؤلّفات التي لا تستقر على أرضية محروثة. ولقد أصدر في 1984 كتيّباً بعنوان «دراسات تمهيدية وملاحق تكميلية حول نظرية الفعل التواصلي»، كما حاول أن يعين القارئ حين يصطحبه في رحلته في فحص النظريات بُبُنية مخصوصة لعمله، حيث ينقسم الكتاب إلى مجموعة من المداخل، وفصول مطوّلة يستعرض فيها الفكر الاجتماعي وينقده، كما وضع فواصل تأمّلية، عددها ثلاثة، تتيح للقارئ أن يفصل بين العرض النقدي والمقولات الخاصة بهابرماس.

كان طموح صاحب «العلم والتقنية كأيديولوجيا» امتلاك كلّ تاريخ التنظير الاجتماعي من أجل تهيئة الأرضية لكلّ تنظير مُقبل. لعلّه درْس هابرماس الذي ينبغي لثقافتنا أن تأخذه، فلا مناص من الإحاطة بأفق معرفي واسع لمجابهة الواقع، ولا بديل عن التنظير للاقتدار على السيطرة على الواقع. يقول: «من واجب نظرية الفعل التواصلي أن تمكّننا من بناءٍ مفهوميّ لسياق الحياة الاجتماعية يكون مناسباً لمفارقات الحداثة»، ولعلّنا - كثقافات خارج المركز الغربي - أَوْلى بمثل هذه الرؤية ما دمنا من ضحايا الحداثة.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

خطة للترجمة؟

قبل «نظرية الفعل التواصلي» لهابرماس، كان المترجم التونسي فتحي المسكيني (1961) قد نقل إلى العربية أعمالاً أخرى من الألمانية: «في جينيالوجيا الأخلاق» لفريدريك نيتشه (2010)، و«الدين في حدود مجرّد العقل» لإيمانويل كانط (2012)، و«الكينونة والزمان» لمارتن هايدغر (2012). وفي ما عدا نيتشه، تصدّى المسكيني لأعمال متباينة المنطلقات والرؤية، تأخّر وصولها إلى العربية.

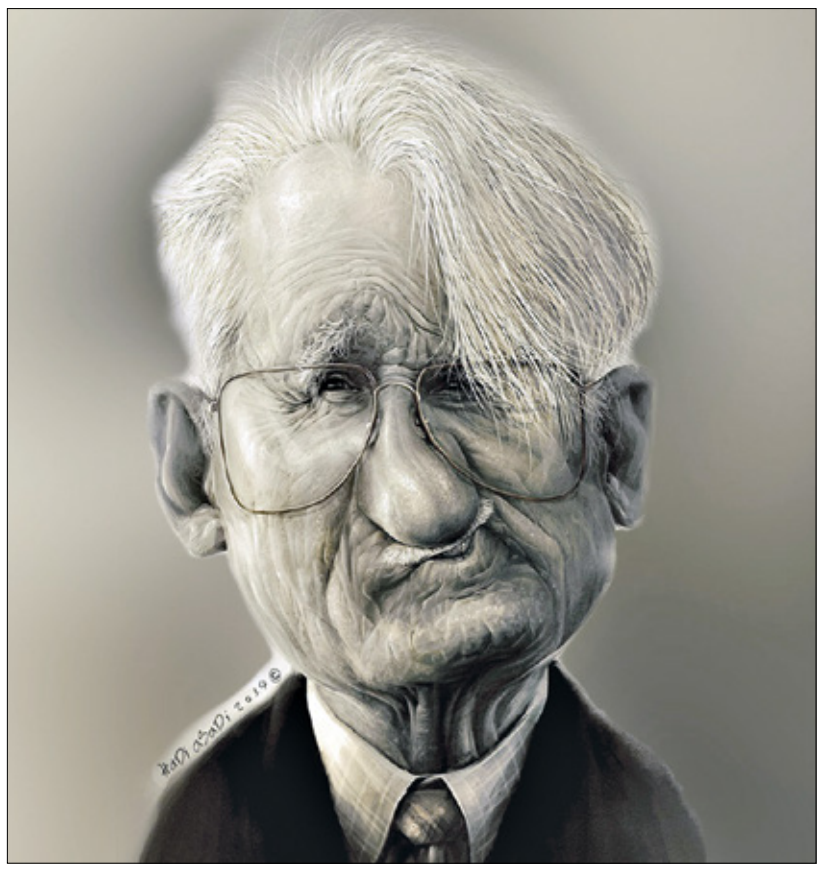

هابرماس في كاريكاتير لـ هادي اسدي

نظرة أولى

في **يوم الحساب**، الصادرة عن «دار رياض الريس» يواصل الروائي السوري فوّاز حدّاد مشروعه في كتابة تاريخ بلده المعاصر وراهن مأساته. نقرأ في بيان صدور الرواية: «لن تذهب الرواية إلى النهايات، إنها عالقة في زمن صعب. ولن نتنبأ في عالم تغيب عنه العدالة، وبلد هو ساحة قتل وقتال، ونظام موبوء بالفساد حتى العظم... رواية عن توثيق الألم، تغوص في مجاهل النظام الشمولي وتخترق خطوطه الخلفية. رواية عن هذا الزمان، لا تنزاح عنه، وجهاً لوجه، لا يغيب الله عن السماء المدلهمّة، ولا عن الأرض الدامية، حيث تتساوى المقابر، مثلما تتساوى الضحايا».

ضمن سلسلة «ترجمان» التي يُصدرها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، صدر حديثاً الكتاب الجماعي **المراقبة وحفظ الأمن على الصعيد العالمي: الحدود والأمن والهوية** وقد نقله إلى العربية المترجم السوري عماد شيحة. يضمّ الكتاب 14 دراسة حرّرها إيليا زريق ومارك ب. سالتر تتناول حفظ أمن الحدود المادية والافتراضية ومراقبتها في زمن تتزايد فيه التهديدات المتخيّلة. من فصول الكتاب: «القضايا المفهومية في دراسة الحدود والمراقبة»، و«توسيع نطاق المراقبة»، و«تهديداتٌ محتملة ومجرمون محتملون»، و«تسييج الخط الفاصل».

العاصفة والزفير عنوان كتاب جديد للمؤرّخ الفرنسي آلان كوربان صدر عن منشورات «فايار». يتناول العمل تاريخ تناوُل الريح ثقافياً ضمن تعبيرات شعرية أو أسطورية، حيث يظهر كيف قارب الناس الريحَ كظاهرة طبيعية وكيف جرى توظيفها في السرديات المختلفة كعامل صانع للأحداث أو مفسّر لها. يعتبر كوربان أن وظيفة الريح في المخيال البشري قد تغيّرت بتطوّر المعرفة العلمية بالظاهرة الطبيعية. يأتي هذا العمل قريباً من مجموعة مؤلّفات أخرى لكوربان تناول فيها تاريخ العشب والزمن والمتع والأحاسيس البشرية وبالبناء الجماعي للذاكرة.

ولكنّ قلبي: متنبّي الألفيّة الثالثة عنوان آخر عمل يصدر للكاتب والشاعر المصري يوسف رخا، لدى «دار التنوير» في القاهرة. يمثّل الكتاب، الذي يصدر هذه الأيام، وصفاً لـ«العلاقة الآثمة» التي تجمع الشاعر المصري بالمتنبّي. حيث يعود المؤلّف إلى ديوان الشاعر العربي القديم ليحاكي بعضاً من قصائده وأبياته بقصائد نثرية تستلهم مواضيعه وتشكّل ردّة فعل شعرية عليها، بحيث يصبح النصّ الجديد جواباً موسيقياً لقرار نادى به المتنبّي قبل قرون. تلي قصائد رخا خاتمة يشرح فيها تفاصيل علاقته بصاحب «على قلقٍ كأنّ الريح تحتي».

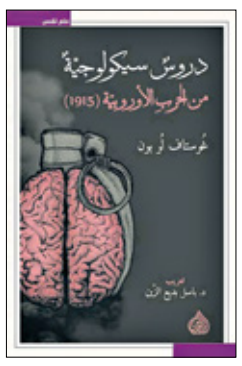

بتعريب باسل بديع الزين، صدر حديثاً عن «دار الرافدين» كتاب **دروس سيكولوجيّة مِن الحرب الأوروبية** (1915) للمؤرّخ الفرنسي غوستاف لوبون، والذي تناول فيه جوانب غير متداوَلة كثيراً من الحرب الكونية بالاعتماد على وثائق ومستندات رسمية، مُتجاوزاً السرد التاريخي للأحداث إلى محاولة الحفر في العناصر النفسية التي رسمت ملامحها وحدّدت مساراتها، وموضّحاً أثرها في تحديد لحظة اندلاع الحرب وتوقّع نتائجها. يُعرَف لوبون عند القارئ العربي بأعماله التي ترجمها عادل زعيتر؛ وأبرزها: «حضارة العرب» و«سيكولوجية الجماهير».

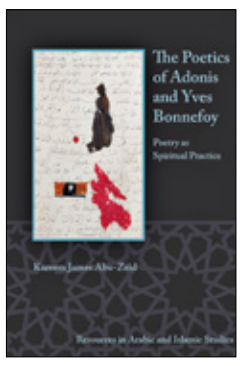

شعرية أدونيس وإيف بونفوا: الشعر بوصفه ممارسةً روحيّة عنوانُ كتاب للمترجم والكاتب المصري الأميركي كريم جيمس أبو زيد، يصدر هذه الأيام لدى منشورات «لوك وود برس» الأميركية. في أربعة فصول تسبقها مقدّمة وتليها خاتمة، يدرس أبو زيد أعمال اثنين من الأسماء الأساسية في الشعر المعاصر باللغتين العربية والفرنسية، متوقّفاً عند «لحظات مفصلية» في تجربتيهما. ويسعى المؤلّف إلى إظهار الكيفية التي يتعامل بها كلّ من الشاعرين، على طريقته، مع القصيدة بوصفها مكاناً لإعادة صياغة العلاقة بين العالَمين الخارجي والداخلي.

الشعر البولندي في خمسة قرون: من كوهانوفسكي حتى 2020 عنوان كتاب صدر حديثاً عن «دار المدى» بترجمة وتقديم هاتف جنابي، يُحاول فيه رسم صورة بانورامية عن الشعر البولندي خلال خمسة قرون، من خلال إضاءة تجارب قرابة ستّين شاعراً وشاعرة من هذا البلد. يعترف المؤلِّف، في المقدّمة، أنّ هذه المهمّة معقّدة ومحفوفة بالمخاطر؛ إذ لا يمكن التصدّي لها بصفحات محدودة، مضيفاً أنّ العمل حاول «تقديم صورة مكثّفة وواضحة وناجعة عن شعر شعب مرّ بأحداث جسام ومآسٍ وتقسيم، من دون الخوض في التفاصيل والابتسار والتَّعمية».

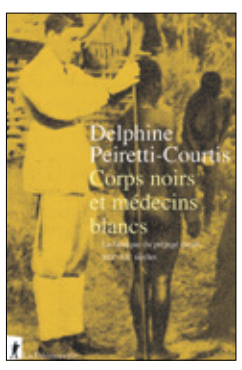

عن منشورات «لا ديكوفرت» في باريس، صدر حديثاً كتاب **أجساد سوداء وأطبّاء بيض** للباحثة دلفين بايريتي كورتي. ترى المؤلّفة أن الأحكام المسبقة والعنصرية التي يعاني منها الرجال والنساء السود، في أيامنا، تجد جذوراً لها في رفع بعض الأحكام المسبقة والعنصرية حول ذوي البشرة السوداء إلى مقام «الحقيقة» العلمية، مثل «الصلابة الجسدية»، و«غلبة العواطف» أو «فرط النشاط الجنسي». تعيد الباحثة قراءة أعمال طبّية نُشرت بين نهاية القرن 18 ومنتصف القرن 20، بغرض تفكيك أطروحاتها وتوضيح انتقالها إلى حُكم مسبق لا أساس له.